مجلة المختار للعلوم الإنسانية 33 (1): 01-22، 2019

Research Article Open Access

شعراء الطبقة الإسلامية الأولى في ميزان طبقات فحول الشعراء

شعيب إدريس الصادق

Doi: https://doi.org/10.54172/ae42mb76

المستخلص: فكرة الطبقة كانت قضية نقدية مهمة في القرن الثالث عشر، وابن سالم الجمحي كان أول ناقد عربي ينقل هذه الفكرة إلى المجال الأدبي. تم تصنيف الطبقة الأولى في الأدب العربي، التي تضم جرير والفرزدق وألخطل والراعي النميري، كأفضل فئة شعرية ونقدية. لكل شاعر منهم معايير نقدية خاصة، وقد كشفت قوة شعرهم وتفوقهم في مجال الشعر من خلال الجودة الفنية والتميز فيها. ابن سالم جمعهم في طبقة واحدة بناءً على هذه الجودة.

الكلمات المفتاحية: كتابة، تعلم، إبداع

The poets of the first Islamic class in the hierarchy of distinguished poets

Shuaib Idris Al-Sadiq

Abstract: The concept of the poetic "class" was an important critical issue in the thirteenth century, and Ibn Salim al-Jumahi was the first Arab critic to introduce this idea to the literary field. The first class in Arabic literature, consisting of Jarir, al-Farazdaq, al-Akhtal, and al-Ra'i al-Namiri, was classified as the finest poetic and critical category. Each poet had their own specific criteria for criticism, and their poetic strength and superiority in the field of poetry were evident through their artistic quality and excellence. Ibn Salim grouped them together in one class based on this quality.

Keywords: Writing, Learning, Creativity

The Author(s) 2023. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ,provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

شعراء الطبقة الإسلامية الأولى
في ميزان طبقات فحول الشعراء

دكتور/ شعيب إدريس الصادق (*)

ملخص البحث

تعد فكرة الطبقة أحد أبرز القضايا النقدية التي شغلت النقاد العرب في القرن الثالث الهجري، ويعد ابن سلام الجمحي أول ناقد عربي ينقل الفكرة من المجال اللغوي إلى المجال الأدبي بعد أن تلقفها من علماء الحديث النبوي الشريف، ثم وسَّع مفهوم الطبقات، حيث أصبحت ذات منهج ثابت له أصوله وقواعده، وقد صنفت الطبقة الإسلامية الأولى التي تضم جرير والفرزدق والأخطل والراعي النميري، المرتبة الأولى بين شعراء طبقتها؛ لأهميتها الأدبية والنقدية؛ لذلك خصها ابن سلام بالترجمة المطولة التي فاقت جل طبقات الكتاب، وقد دار خلاف بين بعض النقاد حول شعراء الطبقة الأولى لاسيما جرير والفرزدق والأخطل، مما أدى إلى تعدد الآراء النقدية، وإصدار الأحكام الجزئية من دون التعرض لدراسة شعرهم كاملا دراسة متأنية.

من خلال دراستنا للطبقة الإسلامية الأولى، اتضح أن لكل شاعر معايير نقدية اختص بها، فجرير امتاز بإجادته في الهجاء، وله روائع في المدح والغزل، والفرزدق امتاز بتفوقه في الفخر على أقرانه، في حين اختص الأخطل ببراعته في مدائحه لبني أمية، أما الراعي النميري فامتاز بابتكاراته وجودة تشبيهاته في وصفه للإبل، هذه أهم الخصائص الفنية التي ميزت شعر كل شاعر، والتي كشفت عن قوة شاعرية هؤلاء الشعراء، وتفوقهم في مجال الشعر، جعلت ابن سلام يضعهم في طبقة واحدة هي الطبقة الإسلامية الأولى؛ لتشابههم في الجودة الفنية، وإن اختلفت مظاهر هذه الجودة.

الـــمقـــدمـــة

لا يزال كتاب طبقات فحول الشعراء يشكل مصدراً خصباً للدراسات الأدبية والنقدية منذ القرن الثالث الهجري؛ لأنه يمثل بداية التأليف الأدبي، لذلك آثرت الوقوف عند شعراء الطبقة الإسلامية الأولى؛ لإبراز ما قد يميزهم عن غيرهم، وحاولت الكشف عن بعض معايير ابن سلام النقدية، كالكثرة التي يراها معياراً ترجيحياً، والجودة التي يعدها حكماً وليس معياراً، والغرض الشعري، وقد وجدت دراسات كثيرة تناولت معايير ابن سلام النقدية، وانتقدت منهجه الذي كان مضطرباً في بعض طبقاته، كقوله في أوس بن حجر:(وأوس نظير الأربعة المتقدمين إلا أنا اقتصرنا في الطبقات على أربعة رهط)[1]، وقوله في الراعي النميري: (فاختلف الناس فيهم أشد الاختلاف وأكثره، وعامة الاختلاف أو كُلُّه في الثلاثة، ومن خالف في الراعي قليل، كأنه آخرهم عند العامة)؛[2] ولعلها كانت صورة النقد الأدبي في زمانه.

(*) **محاضر بقسم اللغة العربية– كلية الآداب– جامعة عمر المختار.**

ومن ضمن هذه الدراسات رسالة ماجستير للأستاذ عبد الكريم أحمد العبادي الموسومة بـ (المقاييس النقدية في كتاب طبقات فحول الشعراء، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة سنة 1976 م)، تناول فيها المؤلف بدايات النقد العربي، ثم تناول النقد التوثيقي مبيناً رأي ابن سلام في قضية الانتحال، والرواية، وأولية الشعر، ثم قسم أساس الطبقات إلى أربعة أقسام، الزمان، والمكان، والفن الأدبي، والناحية الدينية، ثم اتبعها بمقاييس ابن سلام التي قسمها إلى الجودة، والكثرة، وتعدد الأغراض، والفن الأدبي، والمقياس الخلقي، ومقياس اللين، وأخيراً كون الشاعر مغلباً، ثم تناول آراء النقاد المحدثين في كتاب ابن سلام، وتقييمهم لجهوده.

من خلال ذلك نرى أن المؤلف تحدث عن مقدمة كتاب ابن سلام، ومنهجه، ورأي أن ابن سلام أهمل بعض الشعراء لخروجهم عن الآداب العامة، ولم يبين من هم الشعراء ؟ ولعله يقصد الشعراء المحدثين، أمثال بشار بن برد، وأبو نواس، أما دراسة جهاد المجالي الموسومة بـ(طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري)، تناول فيها المؤلف أغلب من صنفوا في الطبقات كابن سلام، وابن قتيبة، وأبو زيد القرشي، وابن المعتز، حيث جعل طبقات ابن سلام، وجمهرة أبو زيد القرشي من الطبقات الرأسية المغلقة، وطبقات ابن المعتز، وكتاب ابن قتيبة الشعر والشعراء من الطبقات الأفقية المفتوحة التي يستطع أي شاعر أن ينتمي إلى أكثر من طبقة؛ لاستقلال مواضيعها، وبناء على هذا التقسيم حاول المؤلف أن يوازن بين مناهج الكتب الأربعة، مبتدأً بالمقدمات، ثم المقاييس النقدية، مبيناً وجوه الاتفاق والاختلاف بينهما، غير أن الدراسة اقتصرت على كتابي ابن سلام(طبقات فحول الشعراء)، وكتاب ابن قتيبة(الشعر والشعراء)، فلم يحظ كتاب أبوزيد القرشي(جمهرة أشعار العرب)، وكتاب ابن المعتز(طبقات الشعراء)، بنصيب وافر من الدراسة.

أما دراسة الدكتور منير سلطان (ابن سلام وطبقات الشعراء)، فبالرغم من أهميتها العلمية، فقد اختصت بدراسة مواضيع الخلاف الذي دار حول اسم الكتاب، وقضية الانتحال بين ابن سلام، والدكتور طه حسين، ثم بين موقف نقاد العصر الحديث من كتاب ابن سلام، أما دراسة الأستاذ همام ياسين شكر محمود الهيتي الموسوم بـ(شعر شعراء الطبقة الإسلامية الثانية، دراسة تحليلية، جامعة الأنبار، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، سنة 2011م)، فقد تناول فيها المؤلف نظرية الطبقات، وبين آراء ابن سلام النقدية في شعراء تلك الطبقة، ثم عقد موازنة بينهم بناء على أشعارهم، مستشهداً برأي ابن قتيبة في بناء القصيدة، ابتداءً من الطلل إلى الرحلة إلى الغرض الشعري.

نلحظ أن أغلب الدراسات التي تناولت طبقات ابن سلام بالرغم من أهميتها النقدية إلا أنها سادها العموم، في حين اختصت دراسة همام ياسين بعقد موازنة بين شعراء الطبقة الإسلامية الثانية بناء على مقياس ابن قتيبة، وهو بناء القصيدة الجاهلية، أما هذا البحث فاختص بالطبقة الإسلامية الأولى كأنموذج للدراسة، والتي من خلالها يمكن تسليط الضوء على مختلف الجوانب الفنية عند شعراء هذه الطبقة، وبيان أوجه التشابه والاختلاف بين شعرائها.

تـمـهـيـد

فـكـرة الطبقـات:

يعد كتاب طبقات فحول الشعراء من أوائل الكتب التي ألفت في تاريخ النقد الأدبي على الرغم من أنه مسبوق ببعض المحاولات مثل محاولة الأصمعي في كتابه فحولة الشعراء؛ وذلك لأن اللغويين والرواة السابقين لابن سلام والمعاصرين كخلف الأحمر، ويونس بن حبيب، والمفضل الضبي وغيرهم، إذ كانوا أبدوا آراء في الشعر والشعراء في أحاديث مبعثرة على ألسنة النقاد، وفي بطون كتب الأدب واللغة، فإن ابن سلام قد أخذ ذلك كله، وعدل فيه، وطوره، ونسقه، وزاد عليه، ثم ضمنه كتابه، فاستطاع بذلك أن ينتزع لنفسه مكانة مرموقة في النقد، إذ صار الكتاب مرجعاً أساسياً في الأدب والنقد، ودراسة الشعراء.

لقد عبر الجاحظ عن فكرة الطبقات التي يمكن ارجاعها إلى العصر الجاهلي فقال:(والشعراء عندهم أربع طبقات فأوّلهم الفحل الخنذيذ، والخنذيذ هو التام، قال الأصمعي: قال رؤبة: الفحولة هم الرواة، ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلق، ودون ذلك الشاعر فقط، والرابع الشعرور)[3]، وقال أيضا:(وسمعت بعض العلماء يقول طبقات الشعراء ثلاث شاعر و شويعر و شعرور)[4]، ويأتي ابن رشيق ليؤكد لنا أن طبقات الشعراء أربعة فيقول:(الشعراء أربعة: شاعر خنذيذ وهو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره... وشاعر مفلق وهو الذي لا رواية له إلا أنه مجود كالخنذيذ في شعره، وشاعر فقط وهو فوق الردئ بدرجة، وشعرور وهو لا شيء)[5]، وقال أيضا طبقات الشعراء أربعة:(جاهلي قديم، ومخضرم وهو الذي أدرك الجاهلية والاسلام، وإسلامي، ومحدث)[6].

من الأقوال السالفة الذكر نلحظ أن هناك معايير نقدية، قامت على أسس ذوقية وعقلية وتاريخية. أمّا بدء التأليف في الطبقات فأغلب الدراسات تشير إلى أسبقية علماء الحديث، فقد(نشأ علم الطبقات وتطور على أيدي علماء الحديث منذ القرن الثاني الهجري)[7]، ويرجح أن كتاب الطبقات الكبرى لمحمد

بن سعد بن منيع الزهري ت 230هـ، هو أقدم مؤلَّف، يسير فيه صاحبه على منهجية في التقسيم أساسها قياسي الزمان والمكان، التي اعتمد عليهما ابن سلام في تقسيمه للشعراء على طبقات في كتابه، الذي يعد أول مؤلف أدبي نقدي يقوم على تصنيف الشعراء في طبقات ضمن مقاييس نقدية، للمفاضلة بين الشعراء،(ومما ساعد على انتقال هذه الفكرة من ميدان علم الحديث إلى الميدان الأدبي، أن الأدباء و النقاد كانوا على صلة وثيقة بالحديث، فلقيت هذه الفكرة قبولا حسنا عندهم)[8]، فراحوا يؤلّفون من خلالها مؤلفاتهم، رغم كون الفكرة كانت أنسب لمجال الحديث، لاستقلالية الموضوع وثباته، كأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، منها للمجال الأدبي، التي تتباين فيه الموضوعات وآراء النقاد، ففكرة الطبقات وجدت عند علماء الحديث خوفاً من ضياع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، قبل انتقالها إلى المجال الأدبي الذي تعرض هو الآخر للانتحال والوضع، مما جعل ابن سلام الجمحي يبدأ مقدمة كتابه بتوثيق النص وتحقيقه؛ ليتم بعدها تصنيف الشعراء في طبقات.

الطبقة لغةً:

لقد وردت لفظة طبقة في بعض المعاجم العربية بمعان مختلفة ودلالات متنوعة، تدل في أغلبها على معنى (المساواة والموافقة)، فقد جاء في لسان العرب في مادة طبق: (الطبق: كل غطاء لازم على الشيء، وطبق كل شيء ما ساواه، والجمع أطباق، وقوله:{ وليلة ذات جهام أطباق }، معناه أن بعضه طبق لبعض أي مساوٍ له)[9]، فالطبقة وردت بمعنى الغطاء للشيء المغطى، والتغطية هنا لا تتحقق ولا تتم إلا إذا كان الغطاء مساوياً للشيء المغطى، لذا فالطبقة وردت بمعنى المساواة، ويقول ابن منظور في موضع آخر:(وقد طابقه مطابقة وطباقا، وتطابق الشيئان: تساويا، والمطابقة: الموافقة والتطابق: الاتفاق، وطابقت بين الشيئين: إذا جعلتهما على حذو واحد وألزقتهما)[10]، فالطبقة تعني: المساواة داخل الطبقة الواحدة، ووجود طبقة يوحي بالضرورة بوجود طبقات أخرى متفاوتة معها من ذلك: طبقات السماء، وطبقات الأرض، قال الزجاج: (معنى طباقا مطبق بعضها على بعض والسموات الطباق: سميت بذلك لمطابقة بعضها بعضا أي: بعضها فوق بعض)[11] من هنا يتضح أن أي شيء غطّى شيئا آخر سموه "الطبق"؛ لأنه حين غطّاه ساواه، فأصبح غطاء له، يقول امرؤ القيس:

دِيــمَةٌ هَطــلاءُ فيها وَطَــفٌ طَبَــق الأرضَ تحــرَّى وَتَــدِرْ[12]

فالماء إذا عم الأرض أصبح كالطّبق لها أو كالغشاء، فتكون بذلك طبقة الماء مساوية لطبقة الأرض، أما الزمخشري، فقال: (وأطبقت الرحى إذا وضعت الطّبق الأعلى على الأسفل، وطابق الغطاءُ الإناء، وانطبق عليه وتطبق)[13]، فالطّبقة تعني المساواة التامة، فإطباق الرحى لا يستقيم إلا إذا كان الطّبق الأعلى مساويا للطّبق الأسفل، ومطابقة الغطاء للإناء لا ينطبق إلاّ إذا كان الغطاء مساويا لحافة الإناء.

ومدلول الكلمة عند الزمخشري لم يكن مقتصراً على معنى المساواة فحسب، بل تعداه إلى معان أخرى، إذ يقول في موضع آخر مستشهدا بقول الراعي النميري:

أرَى إبلي تَكَالأَ راَعِيَاهَا مخَافَةَ جَارِهَا طَبَقَ النُّجُومِ[14]

فالطّبقة كما هو واضح في بيت الراعي تعني: الحالة، أو الهيئة التي تكون عليها الإبل. وتعني أيضا: الجزء من الزمن، يقول: ومضى من الليل طبق، وأقمت عنده طبقا من النهار)[15] ويقول في موضع آخر: (والناس طبقات: منازل ودرجات، بعضها أرفع من بعض).[16]

ويرى محقق كتاب طبقات فحول الشعراء محمود شاكر أن ابن سلام الجمحي يقصد بقوله:(طبقة) مذهباً من مذاهب الشعر، وأن كل واحد من هؤلاء الشعراء الفحول الثمانين أهل الطبقات، يمثل مذهباً لطبقة هو رأس لها، بحيث تكون الطبقة الأولى ـ مثلاً ـ تتمثل فيها أربعة مذاهب من مذاهب الشعراء، جعل ابن سلام كل واحد من أصحابها مثالاً له، وهكذا إلى آخر الطبقات، وقد رجح ذلك معتمداً على قول ابن سلام (فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعراً فألفنا من تشابه شعره إلى نظرائه فوجدناهم عشر طبقات أربعة رهط كل طبقة متكافئين معتدلين)[17]، ويعلق على هذا النص فيقول:(بدا لي أن معنى هذا التشابه هو أساس نظر ابن سلام ولا يتشابه الشاعران إلا في شيء واحد هو مذهبهما في الشعر أو منهجهما الذي يتميز به كل واحد منهم، ويكاد يكون رأساً فيه، فلما قال فوجدناهم عشر طبقات، رأيته لا يكاد يكون له معنى، حتى يكون معنى ذلك عشرة مذاهب الشعر ومناهجه)[18]، ويرى جهاد المجالي أن لفظة طبقة وردت بمعنى المذهب عند أصحاب الحديث، دلالة على التفرد والتفوق في مجال من المجالات أو موضوع من الموضوعات، وهذا المعنى هو الذي جعل محمود شاكر يذهب إلى أن ابن سلام عنى بلفظة طبقة مذهب أو منهج[19]، ويرى عثمان موافي أن لفظة (طبقة) اكتسبت دلالة زمنية في

بيئة المحدثين، فأصبحت تطلق على الجماعة من الناس الذين يشتركون في السن، ولقاء شيوخ العلم؛ ولكنهم قد يتفاوتون في مراتبهم العلمية، وبذلك اكتسبت هذه لفظة (طبقة) دلالة اصطلاحية عند علماء نقد الحديث النبوي الشريف، الذين يرجع لهم الفضل الأكبر في تحديد مفهوم هذا المصطلح، وهم بصدد نقد الرواة، والكشف عن أحوالهم، وترتيبهم مراتب وطبقات... فالطبقة بهذا المعنى لا تعني المذهب أو رأس المذهب، بل تعني جماعة من الناس يضمهم إطار زمني واحد أو عصر واحد؛ ولعل هذا ما قصده ابن سلام من لفظة طبقة[20].

أساس تقسيم الطبقات:

الراجح أن أساس تقسيم الشعراء إلى طبقات هو الفحولة، فقد جعلها ابن سلام أساساً لهذا التقسيم، فكل من ذكرهم في كتابه هم عنده من الفحول في الشعر، وقد صرح بذلك فقال: (فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا)[21]، ولم يكرر هذه العبارة عند الإسلاميين؛ لعله قد اكتفى بذكرها عند طبقات الجاهليين؛ لأن المنهج الذي جرى عليه في تقسيم طبقات الإسلاميين هو المنهج السابق نفسه، ويختلف ابن سلام مع الأصمعي في مفهوم الفحولة، فهي درجة واحدة عند الأصمعي، ولكنها عند ابن سلام درجات، فالشاعر عند الأصمعي، إما فحل أو غير فحل، وعند ابن سلام طبقات متفاوتة، فمنهم من هو في قمة الفحولة كامرئ القيس في الجاهلية وجرير في الإسلام، ومنهم من يقف عند نهاية سلم الفحولة كأصحاب الطبقة العاشرة من الجاهليين والإسلاميين، ومنهم من هو في الوسط وهم من كانوا بين هؤلاء وأولئك، وهو بهذا يكون قد وسع مفهوم الفحولة في الشعر، وهو مصطلح نقدي ذو دلالات متعددة، ومهما يكن من أمر فقد مضى ابن سلام في تقسيمه للشعراء على أساس منهجية ارتسمها لنفسه تقضي بوضع الشاعر في المنزلة الخاصة به، إذ يقول: (ففصّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، فنزلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة، وما قال فيه العلماء)[22]، نلحظ أن المعيار الأول عند ابن سلام هو المعيار التاريخي، ولا يعني ذلك أنه أساس في المفاضلة بين شعراء كل حقبة فلعلّه كان طريقاً للتبويب، ذلك أن المعيار التاريخي الذي فرضه أسقط شعراء عصره من المولدين أمثال بشار بن برد وأبي نواس وغيرهما، وهو في ذلك متأثر بأستاذه الأصمعي في تعصبه للقديم. [23]

ويبدو أن ابن سلام قد راعى ظاهرة أخرى في تقسيم طبقاته وترتيب شعرائها، وهي تقارب شعراء كل طبقة في أشعارهم، فهو يجمع أربعة شعراء في طبقة واحدة، وقد أشار إليها بقوله:(فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه)[24]، ومن جهة أخرى استخدم أكثر من قاعدة في تفسير هذا التشابه الحاصل بين شعراء كل طبقة سواء أكان على مستوى توزيع الطبقة الواحدة كشعراء الهجاء في الطبقة الأولى من الإسلاميين وهم: جرير والفرزدق والأخطل والراعي النميري، أم شعراء الغزل وهم: ابن قيس الرقيات والأحوص وجميل ونصيب في طبقة؛ لاشتراكهم في موضوع الغزل، أم الرجز حيث جمع شعراءه في طبقة الفن الواحد، أم غرض الرثاء الذي ينهج فيه ابن سلام نهجاً مغايراً لنهجه السابق، حيث يقضي بتقسيم الشعراء على طبقات أفقية مفتوحة، لا يراعي فيها تحديد عدد الشعراء داخلها؛ لأنّ القاسم المشترك بينهم هو الإجادة في فن شعري واحد، كما استخدم مقياس البيئة الواحدة، حيث رأي انعكاس أثار البيئة على من فيها من الشعراء، وأنها تخلق صلة وتشابها بين إنتاجهم الأدبي، فجمع شعراء كل بيئة في طبقة كشعراء المدينة، وشعراء مكة، وشعراء الطائف وشعراء البحرين، والمنهج نفسه يتكرر في الطبقة التالية، وهي طبقة شعراء القرى العربية، إذ حشد فيها جملة من الشعراء، معتمداً على معيارين اثنين أولهما: البيئة والثاني: الديانة، أمّا الأول فجمع على أساسه شعراء جمعتهم بيئة واحدة، تقاسموا فيها الظروف والمؤثرات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وتلك رؤية نقدية لابن سلام تؤمن تماماً بأثر البيئة في تحديد ملامح الشعراء، أمّا المعيار الثاني فقد جمع على أساسه أيضاً ثمانية شعراء اشتركوا في ديانة سماوية واحدة وهي اليهودية.

ومقياس الجنس كذلك مقياس آخر خاص بشعراء اليهود، حيث جمعهم في طبقة واحدة مثل السموأل بن عادياء، والربيع بن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وشريح بن عمران، وشعبة بن غريض، وأبو قيس بن رفاعة، وأبو الذيال، ودرهم بن زيد، وكلهم من اليهود إلى غير ذلك من القواعد التي استخدمها في دراساته لهؤلاء الشعراء، وهي من دون شك قواعد جديدة، تدل بوضوح على عمق الفكر النقدي عند ابن سلام، وسعة اطلاعه، ودقة معرفته بأساليب الشعر، ومذاهب الشعراء.

وقد سلك بعض النقاد المعاصرين في تفسير تلك الظواهر التي استخدمها في توزيع شعراء طبقته، مسالك مختلفة، اجتهد كل منهم في إبرازها وتحليلها، فالدكتور محمد مندور يراها تتركز في ثلاثة مبادئ فيقول: قسّم ابن سلام الشعراء إلى طبقات تبعاً للمبادئ الآتية:

(الزمان فجعل منهم مجموعتين جاهليين وإسلاميين وهذا تقسيم لم يكن منه مفر... والمكان لأن ابن سلام عندما وزع الشعراء بين الجاهلية والإسلام... نظر فوجد أن هناك شعراء لم يصبحوا شعراء للعرب كافة، بل ظلوا متصلين كل بقريته، وهم ما يمكن أن نسميهم بالشعراء الإقليميين، فجمعهم في باب شعراء القرى... و الفن الأدبي ضمّن الشعراء الإقليميين من انفرد بفن بذاته... وهم أصحاب المراثي)[25]، وهو كذلك رأي بدوي طبانة حيث يقول:(سلك ابن سلام في النظر إلى الشعراء طرقا مختلفة، ومن أهمها الطريقة التاريخية، من جهة أنّه قسّم الشعراء بحسب أزمانهم إلى جاهليين ومخضرمين وإسلاميين، ومن جهة ثانية، نظر ابن سلام في البيئة وأثرها في الشعر والشعراء، فخصص فصلاً لشعراء القرى العربية، ومن جهة ثالثة، نظر ابن سلام إلى الشعراء من ناحية فنون الشعر وأبوابه إلا أنه لم يحص جميع أغراض الشعر، وإنما اقتصر على المجودين في المراثي...).[26]

والخلاصة أن هؤلاء النقاد وغيرهم، ممن نظرنا في تفسيراتهم للفكرة الأصلية التي بني عليها ابن سلام نظام طبقاته، تدور آراؤهم حول ثلاث نقاط رئيسة هي:

العامل التاريخي – عامل البيئة – الصلة الأدبية.

غير أن بدوي طبانة قسّم الشعراء بحسب أزمانهم إلى جاهليين ومخضرمين وإسلاميين، ولعله استند في ذلك إلى قول ابن سلام:(ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين فنزلناهم منازلهم)[27]، وهذا يفيد أن ابن سلام جعل المخضرمين قسما قائما بذاته، وهذا ما لم يفعله ابن سلام، بل أن صنيعه في الطبقات قائم على التردد في عد المخضرمين في الجاهلية تارة، وفي الإسلام تارة أخرى.

شعراء الطبقة الإسلامية الأولى في ميزان طبقات فحول الشعراء:

كان ابن سلام أكثر عناية بالطبقة الأولى من الجاهليين والأولى من الإسلاميين حتى يصل ـ في بعض الأحيان ـ ببعض الطبقات الأخيرة منها إلى مجرد السرد التاريخي للنسب، وقد حظيت الطبقة الإسلامية الأولى بترجمة مطولة من دون غيرها من الطبقات الأخرى، حيث شغلت ما يقارب عن 224 صفحة من طبعة المدني 1974 م، حيث شغلت الطبقة الإسلامية كلها 312 صفحة موزعة على النحو التالي: الطبقة الثانية 37 صفحة، الطبقة الثالثة 11 صفحة، الطبقة الرابعة 9 صفحات، الطبقة الخامسة 52 صفحة، الطبقة السادسة 32 صفحة، الطبقة السابعة 87 صفحة، الطبقة الثامنة 26 صفحة، الطبقة التاسعة 30 صفحة، الطبقة العاشرة 28 صفحة[28]، كما حظيت نظيرتها في الجاهلية بترجمة مطولة من دون غيرها من طبقات الجاهليين، فشعر أصحاب هاتين الطبقتين، قد بلغ الذروة من حيث الجودة الفنية، ولم يكن لهاتين الطبقتين أن تحتلا مكان الصدارة إلا لأهميتهما الأدبية والنقدية، على الرغم مما يراه الدكتور إحسان عباس من (أن نظرية الطبقات جليلة حقّاً، ولكنها تظل قوالب إذا هي لم تعتمد الدراسة التحليلية، وتبيان الأسس والسمات الغالبة، ومن ثم كانت نظرية صعبة، آثر النقاد ومؤرخو الأدب من بعد تحاشيها، فراراً من تلك الصعوبة)[29]، ولم يبين ابن سلام الأسباب التي دعته؛ لأن يجمع شاعراً بشاعرٍ أو يقدِّمَ شاعراً على آخر، وترك الأمر محتاجاً لحجة مقنعة، لكننا لا نشكُّ بأنَّ الاختيار أو التقديم حتماً يخضع لمعيار معين، قد يفصح عنه ابن سلام في موضع، أو يتركه في موضع آخر، لذلك آثرنا أن يقتصر بحثنا على دراسة الطبقة الإسلامية الأولى من طبقات ابن سلام الجمحي.

اتخذ ابن سلام من الغرض الشعري معياراً نقدياً في الطبقة الإسلامية الأولى، إذ يتضح لنا سبب اجتماع أربعة شعراء هجائين في طبقة واحدة هم على الترتيب: جرير والفرزدق والأخطل والراعي النميري،[30] غير أن ابن سلام خالف الترتيب المذكور آنفاً، وبدأ بالحديث عن الفرزدق، ويرى محمد زغلول سلام أن ابن سلام (يذهب في ترتيب طبقاته مذهب أغلبية أهل البصرة... ومما يظهر ذلك وضعه امرأ القيس على رأس الطبقة الأولى، مع أن الكوفيين يقدمون الأعشى، كذلك يضع الفرزدق على رأس الطبقة الأولى الإسلامية، ويرى نفسه ذلك هو رأى العلماء، أما رأي عامة الناس والشعراء فتقديم جرير، ويقول عن الفرزدق وكان يداخل الكلام، وكان ذلك يعجب أصحاب

النحو)[31]، والظاهر أنه استند على آراء اللغويين في التوصل إلى ثلاثة شعراء من الطبقة الإسلامية الأولى وهم: جرير والفرزدق والأخطل، وقد اختلف اللغويون حول أشعرهم، فقال يونس بن حبيب: (ما شهدتُ مشهدا قط ذُكر فيه جرير والفرزدق، فأجمع أهل ذلك المجلس على أحدهما، وكان يونس يقدم الفرزدق بغير إفراط، وكان المفضل الراوية يقدمه تقدمة شديدة)[32]، كما نقل أبو عبيدة حجج من قدم جريراً فقال:(يحتج من قدم جريراً، بأنه كان أكثرهم فنون شعر وأسهلهم ألفاظاَ، وأقلهم تكلفاً، وأرقهم نسبياَ، وكان دينياً عفيفاً)[33]، ويرى بعض الدارسين أن (دراسة اللغويين للشعراء الإسلاميين كانت أسبق منها للجاهليين، وذلك بحكم معايشتهم وقربهم منهم) [34]،الأمر الذي استلزم وجود طبقة موازية للطبقة الإسلامية، فبحثوا في الشعر الجاهلي فقال أبو عبيدة: (أشعر الناس أهل الوبر خاصة، وهم: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة... وفي الطبقة الثانية: الأعشى ولبيد وطرفة)[35]، كما أصدر بعض اللغويين أحكاما عامة على شعر بعض الشعراء، بناء على بواعث الإبداع الشعري، فقال الأصمعي:(كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا غضب)[36]، وعقد اللغويون موازنة بين شعراء الطبقة الأولى الجاهلية، فقال يونس بن حبيب:(إن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس بن حجر، وأهلَ الكوفة كانوا يقدمون الأعشى، وإن أهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيراً والنابغة).[37]

فقدم علماء البصرة امرئ القيس محتجين بقولهم:(قال: ما قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها العرب، واتبعته فيها الشعراء: استيقاف صحبه، وبكاء الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ، وشبه النساء بالظباء والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وقيد الأوابد، وأجاد في التشبيه، وفصل بين النسيب وبين المعنى)[38]، أما علماء الكوفة؛ فاحتجوا للأعشى بأنه:(أكثرهم عروضاَ، وأذهبهم في فنون الشعر، وأكثرهم طويلة جيدة، وأكثرهم مدحاَ وهجاءَ وفخراَ ووصفاَ، كل ذلك عنده)[39]، أما علماء الحجاز والبادية فقالوا:(كان زهير أحصفهم شعرا، وأبعدهم من سخف، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق، وأشدهم مبالغة في المدح، وأكثرهم أمثالاَ في شعره)[40]، والنابغة(كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً، كأن شعره كلام ليس فيه تكلف) [41]، ورغم هذا الاختلاف والتباين في الأذواق بين علماء اللغة، إلا أنهم استحقوا التقدمة لمكانتهم الفنية، حيث استنبط علماء اللغة مقاييس نقدية كالكثرة والجودة التي اعتمدهما ابن سلام في إنزال الشعراء منازلهم في طبقاته، مثال ذلك قول أبي

عبيدة: (الأعشى هو رابع الشعراء المتقدمين، وهو يقدم على طرفة ؛لأنه أكثر عدد طوال جياد، وأوصف للخمر والحمر، وأمدح، وأهجى) [42]، فأبو عبيدة يرى أن مقياسي: كثرة الإنتاج، وجودة شعر الشاعر دلالة على تقديم الشاعر، وقد تأثر بهما ابن سلام فيما بعد، وأدرجهما ضمن مقاييسه النقدية.

بعد اتفاق أغلب اللغويين على الطبقة الجاهلية الأولى، والطبقة الإسلامية الأولى وازنوا بين الطبقتين في بعض النواحي الأدبية والفنية، من ذلك ما قاله أبو عمرو بن العلاء من أن جريراً يشبه الأعشى، والفرزدق يشبه زهيراَ، والأخطل يشبه النابغة، مستنداً على التشابه القائم بينهم في الصياغة والأغراض والطبع[43]، ويقول ابن رشيق:(وكان الحذاق يقولون: الفحول في الجاهلية، وفي الإسلام ثلاثة متشابهون: زهير والفرزدق، والنابغة والأخطل، والأعشى وجرير)[44]، ولم يقف اللغويون عند تحديد شعراء الطبقتين الجاهلية والإسلامية، بل وازنوا بين شعراء الطبقتين، معتمدين على آراء وأدلة، تبين سبب اختيارهم لشعراء دون غيرهم وتقديمهم لشاعر دون آخر، كما اعتمدوا على مقاييس محددة؛ لتفضيلهم شاعر على آخر، من ذلك تفضيلهم للأخطل على صاحبيه جرير والفرزدق، فأبو عمرو بن العلاء، وأبو عبيدة يريان في الأخطل أنه أشعر شعراء الإسلام، وأنه يفضل على قرينيه جرير والفرزدق، وهذا لصحة شعره، وطول باعه فيه، ويونس بن حبيب، يرى أن الأخطل أشعر الشعراء الثلاثة، لشدة تهذيبه للشعر، وخلو كلامه من السقط [45].

أما لماذا جعل ابن سلام كل طبقة من طبقاته يندرج تحتها أربعة شعراء ؟ يرى البعض أن هذا التقسيم لا يستند إلى أساس واضح وأن التحكم في العدد[46]، هو الذي فرض ذلك، ويرى البعض الأخر أن المصادفة[47]، قد لعبت دوراً كبيراً في هذا التقسيم، ولكني أقول إن هذا التقسيم الرباعي لشعراء الطبقات ليس من باب المصادفة، ولا من قبيل التحكم في العدد، بل أن ابن سلام أسس كتابه على قاعدة نقدية صلبة، استمد أصولها من السابقين من أهل العلم الموثوق بعلمهم وروايتهم؛ فإنه كان يلوح إلى هذه الفكرة قائلاً: (ثم إنا اقتصرنا ــ بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم ــ إلى رهط أربعة، اجتمعوا على أنهم أشعر العرب طبقة)[48]، وقد وقف بعض اللغويين عند حدود أربعة شعراء دون سواهم، فأبو عبيدة جعل الأعشى رابع الشعراء المتقدمين بعد امرئ القيس والنابغة وزهير، وهذا لجودة شعره وقدرته على التصرف في أغراض الشعر من وصف

للخمر والنساء، ومدح وهجاء، فقال:(الأعشى هو رابع الشعراء المتقدمين، وهو يقدم على طرفة؛ لأنه أكثر عدد طوال جياد، وأوصف للخمر والحمر، وأمدح، وأهجى)[49]، هذه الخصائص الفنية في شعره، جعلته يتقدم على طرفة الذي جاد هو الآخر شعره، ولكنه كان قليلاً، وقد أيّد ذلك طه أحمد إبراهيم فقال:(والحق أنه ليس للأربعة الجاهليين خامس يماثلهم حتى يوضع بينهم، فطرفة مثلاً صادق الشعور، قوي المعاني، مطرد النفس، حسن الصياغة؛ ولكن كثرته الأدبية من القلة، بحيث لا تشفع لناقد أن يضعه في طبقة الأعشى وزهير)[50].

ويبدو من هذا الكلام أنّ طه أحمد إبراهيم متأثرٌ بمقياس الكم، متخذ من طرفة أنموذجاً للتدليل على ما يذهب إليه، فهو يقصيه من الطبقة الأولى الجاهلية، ويعلل ذلك بقلة شعره، مقارنة بالشعراء الأربعة الآخرين، كما ذكر نماذج أخرى، من ذلك قوله في الشماخ وعلقمة الفحل و أوس بن حجر أنهم:(لم يستطيعوا مداناة هؤلاء الأربعة في مستواهم، وبالتالي لم يجد هؤلاء الأربعة شاعراً خامساً يكون على شاكلتهم)[51]، والحال نفسه بالنسبة لشعراء الطبقة الأولى الإسلامية، فابن سلام الذي كان متأثراً بآراء اللغويين عندما أراد إقحام الراعي النميري ضمن شعراء الطبقة الأربعة، لم يجد من يؤيده في ذلك من النقاد اللغويين، فهم وإن اختلفوا في شعراء هذه الطبقة إلا أنهم لم يعيروا أي اهتمام للراعي النميري، يقول ابن سلام :(فاختلف الناس فيهم أشد الاختلاف وأكثره، وعامة الاختلاف أو كُلُّه في الثلاثة، ومن خالف في الراعي قليل، كأنه آخرهم عند العامة).[52]

ويرى عثمان موافي أن التقسيم العشري والرباعي الذي اعتمده ابن سلام يرجع إلى ارتباط الأعداد بالأصل العشري... فبعض أنواع الزكاة تقدر بربع العشر...وكذلك للعدد عشرة دلالة اجتماعية في التراث العربي والإسلامي، حيث تتخذ أداة لحصر بعض الصفوة المتميزة من الناس في مجالات التميز المختلفة في أي عصر من العصور، أما التقسيم الرباعي فيرجعه إلى عامل فني، وهو تقسيم الأغراض الأساسية للشعر إلى أربعة أقسام، وهي: المدح، والهجاء، والنسيب، والرثاء، وهي المنابع النفسية التي تنشأ عنها الأغراض وما يصاحبها من انفعالات الرغبة، والرهبة، والطرب، والغضب، والظاهر أن هذه الاغراض كانت محور المفاضلة بين الشعراء في ذاك الزمان[53].

أما قضية ترتيب الشعراء داخل الطبقة الواحدة، فينصُّ ابن سلام في موضع من طبقاته بأنّ لا مفاضلة بين شعراء الطبقة الواحدة فيقول:(وليس تبدئتنا أحدهم في الكتاب نحكم له، ولابُدَّ

من مُبْتدأ)[54]، ثم يعمد في موضع آخر إلى تقديم أحدهم وإحلاله مكان الصدارة مناقضاً قاعدة كان قد أقرّها من قبل، من ذلك قوله: (والمقدم عندنا متمم بن نويرة)[55]، فلا يمكن أن يكون في تقديم جرير أول الطبقة الإسلامية الأولى تفضيل على غيره، صحيح أن ابن سلام لم يقل صراحة إن جريراً هو رأس الطبقة أو صاحب المنزلة الأولى أو الأفضل؛ ولكن يمكن أن يكون في تقديمه لجرير بالذكر أن له شاعرية فاقت غيره، فابن سلام كان على دراية وفطنة جعلتاه ينتقي شعراءه بعناية فائقة، معتمداً على آراء العلماء الثقات فيهم، لكن هذا لا ينفي تدخل الذوق الشخصي ـ في بعض الأحيان ـ والأرجح أن معياري الكثرة والجودة هما ما دفعا ابن سلام لأن يضع جريراً في المرتبة الأولى، فالشاعر كلما كثر شعره وأجاد فيه، تقدمت طبقته، وكلما قل شعره، تأخرت طبقته، فحسّان بن ثابت مقدّم على شعراء يثرب؛ لأنّه(كثير الشعر جيده)[56]، أمَّا ما أخّر شعراء الطبقة الجاهلية الرابعة فهو(قلة شعرهم بأيدي الرواة)[57]، وقد يحكم ابن سلام بجودة الشعر من دون توضيح فقد فاضل بين بيت جرير في قوله:

ألستُم خير من ركب المطايا وأنَدى العالمين بطون راح

وبيت الأخطل في قوله:

شُمس العداوةَ حتَّى يُستقاد لهم وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدرُوا

فقال: بيت جرير أحلى وأسير، وبيت الأخطل أجزل وأرزن، فقال صدقت، وهكذا كانا في أنفسهما عند العامة والخاصة)[58]، وقد يصدر رأياً يراه الأصح، مثال ذلك قوله في رؤبة العجاج وقال بعضهم :(إنه أفصح من أبيه ولا أحسب ذلك حقّاً)[59].

الأمر الذي يستلزم منا أن نستعرض آراء ابن سلام في شعراء الطبقة الإسلامية الأولى، فهو يضع أحكاماَ وقوانين فنية، يحدد فيها المواقف الشعرية التي تحدد طبيعة شعر كل واحد من هذه الطبقة، ولكن بشيء من الاختصار والاكتفاء في جانب النقد والملاحظة، والإطناب والاستطراد في جانب التاريخ لهذه الطبقة، (فالأخطل إذا لم يجئ سابقاَ فهو سكيت، والفرزدق لا يجئ سابقاً ولا سكيتاً، فهو بمنزلة المصلي، وجرير يجئ سابقاً وسكيتاً ومصلياً، وأن للأخطل خمساً أو ستاً أو سبعاً طوالاً روائع غرراً جياداً، هو بهن سابق، وسائر شعره دون أشعارهما، فهو بمنزلة السكيت ــ

والسكيت آخر الخيل في الرهان ـ ويقال إن الفرزدق دونه في هذه الروائع، وفوقه في بقية شعره، فهو كالمصلي أبداً، والمصلي الذي يجئ بعد السابق، وقبل السكيت، وجرير له روائع هو بهن سابق، وأوساط هو بهن مصل، وسفسافات هو بهن سكيت)[60]، هذا القياس الذي يستعمله ابن سلام في الموازنة بين جرير والفرزدق والأخطل المستعار من سباق الخيل، غايةً في الدقة، فهناك السابق والمصلي الذي يليه والسكيت الثالث الذي لم يرتفع إلى منافسة الثاني فضلاً عن الأول، فالأخطل يبدع فيسبق حين ينظم في مجالات تفوقه، فهو يجيد نعت الملوك ويصيب صفة الخمر، ولكنه يصير مسبوقاً وعادياً حين يجاوز هذين الغرضين، أما الفرزدق فإن له ميزته الأساسية وهي الحفاظ على مستواه الجيد لايبز غيره بصورة ساحقة، ولكنه لا يسقط سقوط الأخطل، في حين يتأرجح جرير بين المستويات الثلاثة، وأما الراعي الذي انفرد ابن سلام الجمحي بإلحاقه في هذه الطبقة، فإن القانون الفني، والمصطلح الأدبي الذي يحكمه ـ كما يراه ابن سلام ـ هو استقلاله في أسلوبه الشعري، فقد كان يقال له في شعره، (كأنه يعتسف الفلاة بغير دليل، أي أنه لا يحتذي شعر شاعر ولا يعارضه، وكان مع ذلك بذياً هجاءً لعشيرته)[61]، بل أن موضع الراعي النميري في هذه الطبقة مما يثير الشك قياساً بأقرانه الثلاثة، فلا يمكن أن تقاس أشعاره بشعراء أقرانه الثلاثة، فقلّة شعره، جعلت أغلب الدارسين في حيرة من أمرهم، وهم يرون الراعي النميري مقروناً بجرير والفرزدق والأخطل، إذ لا بُدَّ من علّة بني عليها ابن سلام حكمه النقدي هذا – ونعني به وضعه للراعي في الطبقة الأولى– فهل هي الكثرة أو تعدد الأغراض أو هي الجودة أو أنها مسألة ذوقية أو عصبية أو شيء غير ذلك؟

أمّا الكثرة فلا يمكن ـ على أغلب الظن ـ أن تكون المعيار الذي اعتمده ابن سلام فيما ذهب إليه؛ لأنّنا وإن كنا ندرك أنّ ما بين أيدينا من شعر الراعي هو ليس جميع ما قاله، فإنّنا ندرك أيضاً أنّه لا يمكن أن يقاس بأشعار أهل طبقته، كذلك لم يكن تعدد الأغراض ـ إذا ما اعتمدنا على ما بين أيدينا من شعره ـ المعيار الذي قصده ابن سلام وهو يضع الراعي في أول الطبقة الإسلامية الأولى، فما أُثِر عن الراعي أنّه شاعر هجّاء هجاء نقائض اشترك في المعركة الشعرية بين جرير والفرزدق فسقط بينهما، ولا يعني هذا أنّنا ننفي أنْ يكون الراعي قد قال في الهجاء فقط، فثمّة أبيات قليلة في أغراض الغزل والمديح والرثاء لا تشكّل ظاهرة مميّزة في شعره، ولكنها قد توحي بأمثلة مشابهة قد طوتها يد الضياع.

أمّا عن معيار الجودة؛ إنْ كان معياراً صالحاً قد أخذ به ابن سلام، وهو ينزل الراعي النميري تلك المنزلة، فقد تعوزنا الأدلة وتخوننا قلّة ما بين أيدينا من شعر الراعي على أنْ نقطع بحكم في هذه القضية، ولعل من المناسب أنْ نشير إلى أنّ وصف ابن سلام للراعي (كأنه يعتسف الفلاة بغير دليل، أي إنه لا يحتذي شعر شاعر ولا يعارضه، وكان مع ذلك بذيا هجاء لعشيرته)[62]، ما يوحي بأنّه قصد معياري السبق والجودة، فقد سبق أن قدم امرؤ القيس على شعراء الطبقة الجاهلية الأولى معللاً على ذلك بسبقه إلى أشياء ابتدعها واستحسنها، فاتبعته فيها الشعراء، لكنّنا لا نظن أنّ هاتين الجملتين كافيتان للجزم بذلك، وإنْ كنا نرى في معيار الجودة معياراً مرشحاً ولاسيما أنّنا نجد ابن سلام ينعت الراعي بالجودة والشهرة معاً، فقد قال عنه: (فحل مضر)[63]، ولا يعتبره الأصمعي فحلاً لكنه يعده مع حميد بن ثور وابن مقبل بين كبار شعراء مضر.[64]

بعد استعراض آراء ابن سلام حول شعراء الطبقة الإسلامية الأولى، لزم علينا أن نستعرض بعضاً من آراء النقاد حول شعراء تلك الطبقة، لتتجلى لنا بعض الملامح التي على أساسها اختار ابن سلا م أصحاب تلك الطبقة، وترتيبها داخل الطبقات أو داخل الطبقة الواحدة، فقد (أجمع نقاد الشعر على أن لواءه في العصر الأموي عقد للشعراء الثلاثة جرير والفرزدق والأخطل، ولكنهم اختلفوا في السابق منهم)[65]، وكان جرير يقول:(أنا مدينة الشعر والفرزدق نبعته)[66]، وقد سئل أبو محجن (من أشعر الناس فقال أخو بني تميم يعني جرير)[67]، وقيل لبعض الشعراء:(من أشعر الناس قال النابغة إذا رهب، وجرير إذا غضب، وفي رواية أخرى وجرير إذا رغب)[68]، وقال ابن سلام وسألت الأسيدي أخا بني سلامة عنهما فقال: (بيوت الشعر أربعة فخر ومديح ونسيب وهجاء وفي كلها غلب جرير)[69] وقال أبو عبيدة: (يحتج من يقدم جريراَ، بأنه كان أكثرهم فنون شعر، وأسهلهم ألفاظاَ، وأقلهم تكلفاَ، وأرقهم نسيباَ)[70]، جرير يغلب على نقائضه الابتداء بالنسيب، وهو من الشعراء المطبوعين، وقد اتسمت مدائحه بالقصر وهو سهل المأتي ينساق وطبعه السمح المتدفق، وكأنه يغرف من بحر، رقيق العاطفة قوي الشعر سريع التأثر بالأحداث.

أما الفرزدق فقد أجاد في الفخر(الذي ملك عليه نفسه وظهر فنه الأول الذي بزّ فيه أقرانه)[71]، وقال الجاحظ:(وإن أحببت أن تروي من قصار القصائد شعراً لم يسمع بمثله، فالتمس ذلك في قصار قصائد الفرزدق؛ فإنك لم تر شاعراً قط، يجمع التجويد في القصار أو الطوال غيره)[72]، وكان المبرد يفضله على جرير ويقول:(الفرزدق يأتي بالبيت وأخيه، وجرير يأتي بالبيت وابن عمه)[73]، وقيل:(لولا شعر الفرزدق لضاع ثلث لغة العرب)[74]، كما أن الفرزدق لم يلتزم الابتداء بالغزل فكثيراً ما هجم على معناه هجوماً، وقد استحوذ غرض الفخر على معظم قصائده، فهو ينطلق في مديحه وفخره بنفس حرة، لا تعرف التوسل والاستجداء؛ ولذلك نراه يقول القصيدة في

الغرض الذي يريد، ولا ينهى قصيدته حتى يستوفي غرضه، وخير دليل على ذلك قصيدته في مدح سليمان بن عبد الملك والتي مطلعها:

(طَرَقَتْ نوارُ ودونَ مَطرقِها جَذبُ البري لِنَواحِلٍ صُعرِ)[75]

التي بلغت التسعة والتسعين بيتاً، فكانت متماسكة البناء، محكمة المعاني، مليئة بالصور الفنية التي لم نجد لها مثيلاً عند جرير والأخطل من حيث عمق الفكرة، ولغة التشبيهات؛ نتيجةً لقوة معانيه، وجزالة ألفاظه، وكان عمرو بن العلاء معجباً بشعر الأخطل ولا يرى له مثيلاً في الجودة والفحولة، إلا أن تأخره حال دون تفضيله على الشعراء القدامى فيقول:(لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً)[76]، وقال جرير:(الأخطل أشدنا اجتراء وأرمأنا للفرائص)[77]، وقد سأل عبدالملك بن مروان الفرزدق عن أشعر الناس فقال:(كفاك بابن النصرانية إذا مدح)[78]، وفضله إسحاق بن مرار الشيباني قائلاً:(الأخطل أشعر الثلاثة)[79]، وروى المرزباني عن الأصمعي قوله: (سألت بشار بن برد العقيلي... أي الشعراء أشعر في الإسلام ؟ قال: جرير والفرزدق، قلت: فما بالهم جعلوا الأخطل ثالثاً؟ قال: تعصبت له ربيعة، فقالت لمضر: ألحقوا لنا شاعرنا، فألحقوه، وليس هناك)[80]، فالأخطل شاعر متصنع يتكلف عناء ومشقة في النظم، ومدائحه في ظل بني أمية، تمثل أعظم ما تفتحت به قريحته، حيث طول النفس، وتماسك البناء، وقوة التصوير، وفخامة المعنى، أما الفخر عنده فإن معانيه صورة لمعاني القدماء.

أما الراعي النميري فلم يحظ شعره بالآراء النقدية التي حظى بها شعراء طبقته، ولكنه تمتع بتقدير كبير قبل هزيمته أمام جرير، إذ تسميه المصادر(فحل مضر، وهى التسمية التي أطلقت على النابغة الذبياني في الجاهلية)[81]، وقال عنه البغدادي إنه شاعر فحل مشهور[82]، وجاء في جمهرة أشعار العرب وهو شاعر مشهور من شعراء الإسلام مقدم[83]، وقيل عن لاميته إنها من الشعر العربي الفذ[84]، أما صاحب النقائض قال كان عبيد الراعي شاعر مضر[85]، وقال الجاحظ في البيان والتبيين أن الراعي كان كثير البديع في شعره، وذكر مثالاً على ذلك وهو قوله:

هُمُ كَاهِلُ الدَّهرِ الذي يُتَّقَى بهِ وَمَنكِبُهُ المَرجُوُّ أَكرَمُ مَنكِبِ

ويبدو لنا من ذلك أن الراعي تمتع بتقدير كبير كشاعر، وقد كثر الاستشهاد بشعره؛ لتأكيد معنى، أو تثبيت موقع، أو تصحيح قاعدة، وكان له جولات في فنون الشعر حتى وصل إلى تلك المنزلة الرفيعة بين شعراء عصره، إضافة إلى دقة وصفه للإبل، وصوره الفريدة التي ابتكرها، والتشبيهات التي انفرد بها عن غيره، على الرغم من ذلك لا نجد دراسات قامت على دراسة شعره إلا القليل.

وقد قامت دراسات متعددة في العصر الحديث حول شعراء الطبقة الإسلامية الأولى ؛ نظراً لما يمثلونه في الأدب العربي من قيم فنية، وما خلفوه من تراث يحتاج إلى البحث والاستقراء؛ غير أن دراساتهم في مجملها كانت تؤرخ للأدب ورواده، فيقومون بجمع النصوص وتوزيعها على عصور الأدب، ويقسمون الشعراء والأدباء إلى مدارس ومذاهب وأغراض[86]، مثل كتاب (الهجاء والهجاؤون في عصر صدر الإسلام) لمحمد محمد حسن، و(نقائض جرير والفرزدق) للدكتور عبدالمجيد المحتسب، و(دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي) للدكتور محمد عبدالقادر أحمد، و(أدب السياسة في العصر الأموي) للدكتور أحمد محمد الحوفي وغيرها، وقامت دراسات أخرى أكثر تخصصاً تناولت كل شاعر على حدة، مثل (الأخطل شاعر بني أمية) للدكتور سيد غازي، حيث تناول فيها الجوانب التاريخية والسياسية، وحكم للأخطل بالسبق في المديح على جرير والفرزدق فبني أحكامه على آراء السابقين من دون تحليلها وتفسيرها، و(الأخطل الكبير حياته وشخصيته وقيمته الفنية) للدكتور فخر الدين قباوة، تناول فيها لمؤلف آراء من سبقوه، فرأي أن الأخطل أجاد في المدح ووصف الخمر دون غيرهما من الأغراض الأخرى، ويعد من شعراء عبيد الشعر، و(الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره) لإيليا الحاوي، الذي أسرف في تحليلاته النفسية لشخصية الأخطل، مما أبعده عن مجال النقد الأدبي، أما الدراسات المتخصصة التي قامت حول الفرزدق فكان من أهمها دراسة الدكتور شاكر الفحام في كتابه (الفرزدق)، وهي رسالته التي نال بها الدكتوراه من جامعة القاهرة سنة 1963 م، كما أصدر الدكتور ممدوح حقي دراسة موجزة عن الفرزدق في سلسلة نوابغ الفكر العربي، أما جرير فقد نال عناية كبيرة من الدارسين، فقامت حوله دراسات متعددة من أهمها: دراسة الدكتور نعمان طه في كتابه (جرير حياته وشعره)، ودراسة الدكتور محمد عبدالعزيز الكفراوي (جرير ونقائضه مع شعراء عصره)، ودراسة موجزة عن جرير للأستاذ محمد إبراهيم جمعة ضمن سلسلة نوابغ الفكر العربي، أما محمد نبيه حجاب فقد قدم دراسة عن الراعي النميري، وبين أن للراعي منزلة شعرية رفيعة؛ لأن شعره رصين، وعباراته مجودة، وعنده صور خيالية مبتكرة، هذه في الواقع أهم الدراسات التي تناولت شعراء تلك الطبقة.

وأخيراَ نلحظ أن آراء النقاد تتباين حول شعراء الطبقة الإسلامية الأولى، بخلاف الراعي النميري، فمن كان يميل إلى أشعار المطبوعين وإلى الكلام السمح السهل الغزل، قدّم جريراً، وأما

من كان يميل إلى جزالة الشعر وفخامته وشدة أسره، فيقدم الفرزدق، وأما من كان يميل إلى التهذيب والتنقيح والتأني، فإنه يقدم الأخطل.

الخاتمة

ظهرت فكرة الطبقات في التراث العربي لدى علماء الحديث، حيث عمد علماء الحديث إلى وضع رواة الحديث في طبقات، مثل كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد، ثم نقل اللغويون هذه الفكرة من المجال الديني إلى المجال اللغوي، ثم أتى من بعدهم ابن سلام الجمحي، حيث نقل فكرة الطبقات من المجال اللغوي إلى المجال الأدبي، وقد ساعده على ذلك قرب عصره من عصر علماء الحديث الذين تأثر بهم في كتابه الذي بدأه بمقدمة حثّ فيها على تحقيق النصوص وتوثيقها، ومراعاة الوضع والانتحال في الشعر العربي، فابن سلام يعد من مدرسة النقاد الفقهاء، وهو أول من استخدم مصطلح طبقة بمعناه الاصطلاحي والنقدي الذي انفرد به عن غيره، فابن المعتز الذي جاء بعده، لم يعط الفكرة بعداً اصطلاحياً في كتابه طبقات الشعراء، فكان كتابه أشبه بالتأريخ الشعري منه إلى الطبقة، وبفضل ذوقه وفطنته، أنزل الشعراء في طبقات بعد أن لاحظ تشابها بينهم، فأقام فكرة الطبقة على التشابه الحاصل بين شعراء كل طبقة من خلال المعايير الفنية التي حدد من خلالها شعراء الطبقة الإسلامية الأولى، كالزمان والمكان والشهرة والغرض الشعري والجودة الفنية، فقد لا حظنا أن هناك اختلافاً في بعض المعايير بين شاعر وآخر، فكل شاعر امتاز بخصائص فنية معينة؛ فجرير امتاز بإجادته في الهجاء، وله روائع في المدح والغزل، والفرزدق امتاز بتفوقه في الفخر على أقرانه، في حين اختص الأخطل ببراعته وتفوقه في مدائحه لبني أمية، أما الراعي النميري فامتاز بابتكاراته وجودة تشبيهاته في وصفه للإبل.

ورغم هذا الاختلاف في الخصائص الفنية لدى كل شاعر من شعراء الطبقة إلا أن القاسم المشترك بينهم هو الجودة الفنية وأن هذا الاختلاف هو اختلاف في مظاهر الجودة الفنية.

الـهـوامــش

[1]– طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي (ت 231هـ)، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، منشورات دار المدني بجدة، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ج1، ص97.

[2]– طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي، ج2، ص299

[3]– البيان والتبيين: لأبي عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: الدكتور درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1999 م،ج2، ص 241

[4]– البيان والتبيين: ج 2، ص 241

[5]– العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: لأبي علي الحسن بن رشيق، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، سنة 2004 م، ج1، ص 114–115.

[6]– العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: لأبي علي الحسن بن رشيق، ج1، ص105.

[7]-علم الرجال نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع: محمد بن مطر الزهراني، دار الخضيري، الطبعة الثانية، سنة 1998م، ص 38.

[8]– طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري، جهاد المجالي، مكتبة الرائد العلمية عمان الاردن، دار الجيل، بيروت لبنان، الطبعة الاولي سنة 1992 ص34

[9]– لسان العرب: لابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، سنة1997 م، مادة "طبق.

[10]– لسان العرب: ابن منظور، مادة طبق.

[11]– لسان العرب: ابن منظور، مادة طبق.

[12]– ديوان امرئ القيس، تحقيق: حنا الفاخوري، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، لبنان، سنة 1989 م،ص2.

[13]–أساس البلاغة: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر، بيروت، لبنان، سنة 2004 م، ص 383.

[14]– أساس البلاغة: ص 383.

[15]– أساس البلاغة: ص 383.

[16]– أساس البلاغة: ص 383.

[17]- طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي، ج1، ص24.

[18]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص68.

[19]– طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري، جهاد المجالي ص25.

[20]– دراسات في النقد العربي: عثمان موافي، الناشر، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، سنة 2004 م، ص 111، بتصرف.

[21]- طبقات فحول الشعراء: ج1، ص24.

[22]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص 24.

[23]– طبقات الشعراء في النقد العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري: جهاد المجالي، ص 114، 115.

[24]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص 24.

[25]– النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: محمد مندور، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، سنة 1996 م، ص 12، 13، بتصرف.

[26]– دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، تأليف: بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، الطبعة الخامسة، سنة 1969م، ص191، بتصرف.

[27]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص 24.

[28]– ابن سلام وطبقات الشعراء: منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص241.

[29]– تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ص 82.

[30]– طبقات فحول الشعراء: ج2، ص 297، 298.

[31]–تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري: محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، سنة 1964م،ص 104، 105.

[32]– طبقات فحول الشعراء: ج2، ص 299.

[33]– الأغاني: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت 356هـ) تحقيق: سمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة 1986م، ج1، ص108.

[34]– طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري، جهاد المجالي، ص39.

[35]–، جمهرة أشعار العرب: لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: علي فاعور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة 1992م، ص 105.

[36]– العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: لأبي علي الحسن بن رشيق، ج1، ص85.

[37]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص 52.

[38]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص 55.

[39]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص 65

[40]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص 64

[41]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص 56.

[42]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص 90.

[43]– تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري: طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، منشورات محمد علي بيضون، الطبعة الثالثة، سنة 2008م، ص64.

[44]– العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: لأبي علي حسن بن رشيق: ج1،ص90.

[45]– تاريخ النقد الأدبي عند العرب: طه أحمد إبراهيم، ص 67.

[46]– تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1971 م، ص 81.

[47]– تاريخ النقد الأدبي عند العرب: طه أحمد ابراهيم، ص 87.

[48]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص49، 50.

[49]– العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده: لابن رشيق القيرواني، ج1، ص 38.

[50]– تاريخ النقد الأدبي عند العرب: طه أحمد إبراهيم، ص 66.

[51]– تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ص67.

[52]– طبقات فحول الشعراء: ج2، ص 299.

[53]– دراسات في النقد العربي: ص 114 بتصرف.

[54]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص 50.

[55]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص 204.

[56]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص215.

[57]– طبقات فحول الشعراء: ج1، ص 137.

[58]– طبقات فحول الشعراء: ح2، ص494.

[59]– طبقات فحول الشعراء: ج2، ص761.

[60]– طبقات فحول الشعراء: ج2،ص 375.

[61]– طبقات فحول الشعراء: ج2، ص 502.

[62]– طبقات فحول الشعراء: ج2، ص502.

[63]– ديوان الراعي النميري: جمعه وحققه: راينهرت قايبرت، بيروت، سنة 1980 م، المقدمة.

[64]– ديوان الراعي النميري: المقدمة.

[65]– المنهل العذب في الادب العربي وتاريخه، أحمد محمد الإمام، شركة المدينة للطباعة والنشر، جدة، ص 98

[66]– العقد الفريد: لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت 328هـ)، حققه وشرحه وعرّف أعلامه: محمد التونجي، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة 2006 م، ج 6، ص 106.

[67]– طبقات فحول الشعراء: ج2، ص408.

[68]– العقد الفريد: لابن عبدربه الأندلسي، ج6،ص 105، 152.

69– طبقات فحول الشعراء: ج2، ص379.

70– الأغاني: ج8، ص5.

71 الأغاني: ج 21، ص327.

72– الحيوان: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، سنة 1969م، ج3، ص 98.

73– الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء في عدّة أنواع من صناعة الشعر): لأبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (384هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 192.

74– البيان والتبيين: للجاحظ، ج1، ص321.

[75]– ديوان الفرزدق: شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1987 م، ص 230.

[76]– جمهرة أشعار العرب: لأبي يد القرشي، ص 102،103.

[77]– طبقات فحول الشعراء: ج 1، ص494 – 495.

[78]– الأغاني: ج 8، ص306.

[79]– الأغاني: ج8، ص306.

[80]– الموشح: ص 220–221.

[81]– ديوان الراعي النميري: المقدمة.

[82]–خزانة الأدب: عبدالقادر بن عمر البغدادي، شرح وتحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي،القاهرة،ج2، ص151.

[83]– جمهرة أشعار العرب: لأبي زيد القرشي، دار صادر، بيروت، ص 912.

[84]– شرح نقائض جرير والفرزدق: تأليف أبوعبيدة معمر بن المثنى برواية اليزيدي عن السكري عن ابن حبيب عنه تحقيق: محمد إبراهيم حور، وليد محمود خالص، الناشر، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، سنة 1998 م، الطبعة الثانية، ج1، ص 435.

[85]– شرح نقائض جرير والفرزدق: ج1ص 594.

[86]– تاريخ نشأة علم البلاغة وأطوارها: عبدالعزيز عرفة، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، الطبعة الأولى، سنة 1398 هـ، ص 13.